مغامرات جحوحه وشركاه

قصص ومغامرات بوليسية فكاهية

٢

سر العفير الآلى

تأليف
مجدى صابر

الناشر
عبد اللاه

مفاجأة قاسية

وقفنا ثلاثتنا فى رعب وهلع لا مزيد عليه كأنما أصابنا شلل ، حتى إن أحدنا لم يستطع تحريك لسانه ، وفتحت فمى محاولاً النطق أو حتى الصراخ والاستنجاد بإنسان ما .. غير أن فمى ظل مفتوحاً عن آخره ولم يخرج منه شىء سوى أصوات مبهمة غامضة كقطة تلوم أمام كلب مشاكس ،.وعندما أردت أن أجرى هارباً لم أشعر بقدمىَّ فى مكانهما ، كأنهما أصيبتا بالشلل ، وكل ما استطعت فعله أن رفعت يدى بصعوبة مشيراً نحو الغفير الآلى وقلت برعب لم أشعر به فى حياتى من قبل : إن .. إنه .. يتحرك .. نحونا ..

وصرخنا ثلاثتنا مرة واحدة عندما كاد الغفير الآلى يمسنا ، واندفعنا كالشياطين فاختفى كل منا خلف شجرة ، وقد كادت عيوننا تخرج من محاجرها رعباً .

وأمام عيوننا المذهولة ، راح غفيرنا الآلى يتحرك ببطء وهو يتقدم نحونا مرة أخرى حتى توقف على مسافة متر واحد فقط ونحن نرتعد رعباً وهلعاً .. فماذا تظنونه فعل بعد ذلك ؟

لقد انحنى لنا .. نعم .. انحنى كما ينحنى العبد لسيده .. ولأنه لم يعد هناك عبيد وسادة هذه الأيام ، فيمكن أن أقول أنه انحنى كما ينحنى الرعية المخلصون لملوكهم !

انحنى الغفير الآلى لنا كأنه يقدم احتراماته وتحياته ويعدنا أنه سيكون خير الغفير الآلى المخلص لسادته وأولياء نعمته !

تبادلنا النظرات ذاهلين .. هل يمكن أن يكون ما نراه أمامنا حقيقة .. ذلك الشيء الذى صنعناه بالأمس وحملناه كالقتيل لنخفيه خلف شجرة ، فجأة دبت

فيه الحياة ، فصار يتحرك ويسير وينحنى باحترام لمظلوم ؟

قلت ذاهلاً : لقد تحرك .. تحرك بلا بطاريات أو أسلاك أو دوائر كهربية .

وقال « جمعة » بنفس الذهول : وانحنى لنا .

وأكمل « سالم » : إنه يعرف أننا سادته ومن صنعه ، ولذلك يظهر طاعته واحترامه لنا .

قلت وأنا أبتلع لعابى من شدة الذهول : ولكن كيف تحرك .. من الذى جعل الحياة تدبُّ فيه ؟

نظرنا ثلاثتنا إلى الغفير الآلى متسائلين ، فأشار إلى السماء فى إجابة بليغة إلى أن الله هو الذى منحه الحياة والقدرة على الحركة !!

وحملقنا فيه كأننا نشاهد جنياً أو كأن أبقاراً بليدة تشاهد طبقاً طائراً لأول مرة فى حياتها !!

وسأله « جمعة » وهو يرتعد : هل .. هل تستطيع أن تنطق ؟

هز الغفير الآلى رأسه نافياً .. وهنا فقط تذكرنا أننا نسينا تركيب لسان له !

وتطلع « سالم » حوله قائلاً : قد ترانى والدتى ومعنا هذا الغفير الآلى فيحدث سوء فهم ينتهى بعقاب جديد .. دعونا نذهب إلى العمدة وبعد أن يوافق على تعيينه مكان « شنبو » يمكننا أن نصنع لغفيرنا الآلى فماً ولساناً ، وربما أنفاً وشارباً أيضاً !!

وافقنا فى التو . وسألت الغفير الآلى : هل تعرف ما هى مهمتك القادمة ؟

هز الغفير الآلى رأسه بنعم من قبل أن نشرح له ما نريد منه ، فوضح لنا أنه غفير آلى خارق الذكاء بالفعل ، بل وقادر على قراءة الأفكار أيضاً من قبل حتى أن نفصح عنها !

وصحنا به : هيا بنا فقد حانت ساعة العمل !

واتجهنا خارجين والغفير الآلى خلفنا وهو يسير بطريقة توحى بأنه ربما تعلم السير من بطة عرجاء ،

واندفعنا فى موكب يخترق شوارع القرية وطرقاتها متجهين إلى منزل العمدة .

وما أن وقع بصر الأطفال على غفيرنا الآلى حتى صرخوا فى رعب ، واندفعوا يختفون فى أقرب الأماكن ، كما لو كان عفريت بسبعة قرون يطاردهم ، فمنهم من تسلقوا النخل هاربين كأنهم يفرون من الطاعون ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم فى النيل غائصين كأنما شبَّ فيهم حريق . أى رعب سببه غفيرنا الآلى لهم ، حتى الكبار منهم !

وحتى الأبقار التى صادفتنا فى طريقنا خارت بقوة وركضت فى كل اتجاه مفزوعة ، على حين نهق حمار كان يحمل صاحبه فوقه بصوت رهيب وألقاه من فوق ظهره ، وانطلق يعدو كما لو كان يتمرن استعداداً لسباق أوليمبى !

ولم يكن لدينا وقت لنشرح لأحد شيئاً .. كان هدفنا أن نصل إلى منزل العمدة لنقنعه برفد الغفير « شنبو » وتعيين غفيرنا الآلى مكانه !!

وفى النهاية وصلنا إلى منزل العمدة ، وخلفنا وعلى مسافة آمنة تجمّع أكثر من نصف أهالى قريتنا يتابعون عن بعد ، وقد أصابهم الهلع ولا يجرؤون على الاقتراب .

وما كاد أول الخفراء يلمحنا حتى جحظت عيناه وانطلق يعدو كالمجنون صارخاً فى رعب واختبأ داخل حظيرة الأبقار ، أما الغفير الثانى فسقط فاقد الوعى قبل أن ينطق بكلمة واحدة ، على حين قفز الغفير الثالث وتعلق بالنجفة المدلاة من السقف !

ولم نهتم بكل ذلك وواصلنا سيرنا نحو مضيفة العمدة ، واندفعنا داخلين ، وكان بداخله ولحسن حظنا الغفير « شنبو » وكلبه « شيبوب » وقد ارتدى قميصى وكان معهما العمدة نفسه !

لم نقل شيئاً فى بادىء الأمر لنشرح المسألة ، واكتفينا بمشاهدّة رد فعل دخولنا ومعنا الغفير الآلى .

حملق الغفير « شنبو » فينا وقد جحظت عيناه ، وأخذ شاربه يرتعد كما لو كان يحركه زمبلك ، أما كلبه « شيبوب » فلأول مرة نراه ينبح مرتعباً ويسرع

ليختفى خلف الغفير « شنبو » ، على حين كان الغفير « شنبو » يبحث عن شىء يختفى خلفه !!

أما العمدة فماذا أقول عنه ، إذا كان يخاف كل هذا الخوف من غفير ، مجرد غفير آلى لا أكثر ولا أقل ، فماذا سيحدث له مثلاً لو شاهد « مأموراً آلياً » ؟

أخذ العمدة يرتعد من رأسه إلى أخمص قدميه كما لو كان كل التيار الكهربائى القادم من السد العالى يسرى فيه ، وكان جلبابه الواسع ينتفض مرتعشاً كما لو كانت ريح خفية تهب بداخله من مكان مجهول .. وحتى عصاه أخذت تطقطق فوق الأرض بفعل ارتعاشة يده الممسكة بها .

وكل ما استطاع العمدة النطق به هو : ما .. ما .. ما .. م .. م .. م .. ب .. ب .. ب .. ..

وخشينا أننا لو لم نتدخل ونفسر الأمر فقد يصاب العمدة بشلل رعاش لا شفاء منه !

تقدمنا ثلاثتنا نحو العمدة لنشرح له الأمر ، مشفقين من المنظر البائس الذى بدا عليه .

قلت له : لا تخشَ شيئاً يا سيدى العمدة .. إن ما تراه أمامك ليس إلا غفيراً آلياً !

وقال « سالم » : وهو هادىء مطيع يمكنه أن يقوم بحراسة المزروعات والمنازل ليلاً أو نهاراً .

وقال «جمعة » بلهجة ذات مغزى : وهو لن يكلفك شيئاً يا جدى .. لا أجراً ولا طعاماً .. ويمكنه أن يطحن لك الغلال مائة عام بلا أجر !

حملق فينا العمدة مذهولاً وقال وهو لا يزال يرتعد : هل .. هل هذا .. هذا الشىء غفير آلى ؟

– وماذا يمكن أن يكون إن لم يكن غفيراً آلياً .

قلت أنا ببساطة كما لو أننى أحدث العمدة عن عنزة الجيران !

– لقد صنعناه نحن يا حضرة العمدة .

قالها « سالم » ببساطة كما لو كان يقول إننا صنعنا طائرة ورقية لا غفيراً آلياً !

– ونحن نهبه لك بلا مقابل يا جدى شرط أن تعينه غفيراً لديك !

قالها « جمعة » كما لو كان يهدى جده كلباً كما فعل مع صديقه « حارحور » منذ ثلاثة آلاف عام !!

وتقدمت نحو الغفير الآلى قائلاً : هيا أيها الغفير الآلى .. أظهر احترامك وتحياتك للعمدة المحترم !

تقدم الغفير الآلى خطوة من العمدة ، فتراجع العمدة إلى الخلف خطوتين ، وانحنى الغفير الآلى للعمدة باحترام مضاعف ، يقطع بأنه غفير آلى مهذب ، تلقَّى قدراً من حُسن التربية ويعرف لكل إنسان قدره !

قلت بزهو : أرأيت يا حضرة العمدة .. إنه غفير يفهم فى « الإتيكيت » .. إنه غفير « جنتلمان » !

وقال « جمعة » بخبث : وهو لن يكلفك شيئاً يا جدى .. لا طعاماً ولا شراباً ولا أجراً أو حتى مكاناً للنوم ، إذ يمكنه أن ينام وهو واقف !

تمالك العمدة نفسه ، وكف عن الارتعاد وظهر عليه شىء من الاطمئنان ، فقلت للعمدة : تقدم نحوه ، إنه لطيف هادىء ولن يعضك فلا أسنان له .

وتقدمت نحو الغفير الآلى وربت عليه لأؤكد للعمدة دمائة خلق غفيرنا الآلى وشدة تهذيبه .. فبادرنى الغفير الآلى بأن ربت على ذراعى أيضاً !

قال « سالم » باسماً : أرأيت أيها العمدة .. إنه غفير لطيف جداً ويصلح أماً مثالية !!

وعاد « جمعة » يؤكد للمرة الثالثة : وهو لن يكلفك شيئاً يا جدى .. لا طعاماً ولا شراباً ولا أجراً أو حتى مكاناً للنوم .

ابتلع العمدة دهشته وحاول أن يبدو متماسكاً أمامنا ، فتقدم ربع خطوة نحو غفيرنا الآلى متسائلاً : هل .. هل أنتم الذين صنعتم هذا .. هذا الشىء .. هذا الغفير الآلى ؟

أجبناه ثلاثتنا بصوت واحد .

– نعم .

– وهل .. هل ستهدونه لى ؟

قالها العمدة وقد التمعت عيناه ببريق الجشع ، بعد أن تبدد خوفه من غفيرنا الآلى .

– نعم .

أجبناه ثلاثتنا بصوت واحد . وأكملت أنا : إن لنا شرطاً وحيداً كى يصبح هذا الغفير الآلى ملكاً خالصاً لك أيها العمدة .

ظهر القلق فى عينى العمدة وأسرع قائلاً : ماذا ؟ .. لا تطلبوا مالاً فأنا لا أملك منه شيئاً !

وكنا ندرك أنه لا يقول الصدق ، لأنه قبل أن يكون عمدة لم يكن يملك سوى قيراطين ، أما وهو عمدة فقد صار يمتلك عشرين فداناً وحذاءين ، أحدهما برقبة طويلة يرتديه عندما يذهب لمقابلة المسئولين !

قال « سالم » للعمدة : نحن لا نريد نقوداً يا عمدة مقابل الغفير .. إن كل ما نطلبه هو أن ترفد الغفير « شنبو » من الخدمة وتعين غفيرنا الآلى مكانه !

وهنا زأر « شنبو » : ماذا تقول أيها الولد ؟

وصرخ نحونا فى غضب هاتفاً : أيها الخبثاء .. أى

ما أن وقع بصر الأطفال على غفيرنا الآلى
حتى صرخوا فى رعب

حيلة ماكرة قمتم بها ، وأتيتم بهذا الشىء لتتخلصوا منى ؟

واندفع نحونا يبغى شراً ، فأوقفه العمدة بعصاه وهو يقول غاضباً : قف مكانك أيها الغفير « شنبو » .. أقصد شلبى .. هل نسيت أننى العمدة وأنا من يعاقب الأولاد لا أنت ؟

ونظر نحونا باسماً - لأول مرة فى التاريخ - وقال : إنهم أولاد أذكياء لطفاء وقد قبلت هديتهم !

تصوروا العمدة يصفنا بأننا أذكياء لطفاء ، وهو الذى قال عنا بالأمس أننا خبثاء وملاعين .. على أى حال لم يكن هذا مستغربا منه ، فهو يتغير إلى النقيض عندما يحصل على هدية من شخص ما ، ولو كانت الهدية كوز ذرة .. فما بالكم بغفير آلى ؟

تساءل الغفير « شنبو » فى ذعر : هل سترفدنى أيها العمدة ؟

وهز الكلب« شيبوب » ذيله بعصبية ، كأنه يسأل عن مصيره أيضاً ، فذكرنى باللحظة التى كانت

الفرونكة الزرقاء مربوطة فى ذيله أثناء هجومه القذر على سفينتى وإغراقه لها ، وأحسست بالشماتة فيه .. المهم من يضحك أخيراً !

أجاب العمدة وهو يشير بعصاه لـ « شنبو » : أنت وكلبك إلى الخارج .. لقد فصلتكما منذ الآن بسبب إهمالكما فى الخدمة !

لم يصدق الغفير « شنبو » أذنيه ، وهتفنا نحن فى سعادة وقفزنا فى سرور بالغ ونحن نحتضن بعضنا البعض لشدة فرحتنا ، فلم أنتبه لنفسى وأنا أصطدم بالغفير الآلى فاختل توازننا نحن الاثنين ، وسقطنا على الأرض فى صوت مدوٍ .. صوت الغفير الآلى المعدنى طبعاً فوق الأرض الصلبة .

- آى .. آه ساقى .

لم أكن أنا من صرخ متألماً بل كان - لدهشتنا الشديدة - هو الغفير الآلى !

وحملقنا ذاهلين فى الغفير الآلى الممدد على الأرض لا يستطيع النهوض ..

كان الغفير الآلى لا يزال يتألم ممسكاً بساقه وكنت أعرف الصوت الذى خرج منه .. أعرفه بكل تأكيد .

ومددت يدى ذاهلاً أزيح رأس الغفير الآلى - أقصد الحلة الموضوعة مكان الرأس - وما أن انكشفت الرأس عما بداخلها حتى هتفنا جميعاً بصوت واحد ذاهلين : سلمى ؟

حكاية تحضير الأرواح

كانت مفاجأة لم نتوقعها بأى حال من الأحوال .

فبالإضافة إلى عصا العمدة التى طالتنا جميعاً وأرجعتنا فى أكثر من مكان ، وكذلك الكلب القذر « شيبوب » الذى راح يطاردنا نابحاً يريد عقرنا وقد ركبته شجاعة مفاجئة - ولا عجب فقد كان يرتدى قميص - وبالإضافة إلى سخرية الغفير « شنبو » وشماتته بنا .. وبالإضافة إلى سخرية أهل قريتنا وقهقهتهم علينا بعد أن اكتشفوا حقيقة غفيرنا الآلى .

بالإضافة إلى ذلك كله فقد عاقبنا أهلنا عقاباً مضاعفاً .. فكان علىّ أن أحرم من مصروفى

لأسبوعين آخرين ، وكان على « سالم » ألا يشاهد التليفزيون لمدة شهر هو وأخته « سلمى » . وكان على « جمعة » أن يطحن محصول جده لخمسة أعوام قادمة مما كان يهدد مستقبله بأن يصير حاوياً !

ولكن ذلك لم يؤثر فىَّ .. وكان أكثر ما آلمنى صوت « سلمى » عندما سقطت فوق الأرض وهى داخل بدن الغفير الآلى ثم صياحها متألمة ، وبالكاد استطعنا إخراجها من داخل الغفير المعدنى قبل أن تطاردها عصا العمدة وكلب الغفير « شنبو » ، وكان ما فهمناه منها هو أنها استمعت إلى حديثنا مساء الأمس عن الغفير الآلى وحيرتنا فى تحريكه وتسييره ، فأرادت مساعدتنا فاختبأت داخل الغفير الآلى فى الصباح قبل مجيئنا ، ولم تشأ محادثتنا حتى لا يكشف صوتها عنها ، ولكن سقوطها فوق الأرض وتألمها دفعاها إلى الصياح رغماً عنها ، وكان ما كان من انكشاف أمرها !

أقول الحق ، لقد سعدت بما حدث وكان طريفاً بالنسبة لى ، خاصة تلك المفاجأة الرائعة التى تبدت

عندما كشفت رأس الغفير الآلى فإذا بداخله « سلمى » بوجهها الأبيض الحلو المستدير وعينيها الواسعتين الجميلتين ، وضفيرتها الطويلة اللذيذة .

لقد ظهرت لى وقتها مثل « عروس البحر » التى طاردتها فى حلم ليلة أمس . ولا بد أن وجهى قد احمر وقتها ، لا من المفاجأة بل ومن الخجل أيضاً ، فكلما رأيت « سلمى » يحمر وجهى ويرتعش طرف أنفى بطريقة ملحوظة ، وتتصاعد الدماء إلى رأسى كنافورة فأتعجب عن السبب فى ذلك .. لعلها الحصبة !!

وضايقنى أن أكون السبب فى حرمان « سلمى » من مشاهدة التليفزيون مع أخيها ، فعرضت عليهما أن يأتيا لمشاهدته فى منزلنا ، فاعتذرا بلباقة ، ومن جانبى لم ألح عليهما كثيراً فى قبول عرضى ، لأنه لم يكن فى منزلنا تليفزيون !

وهكذا انتهت سريعاً مغامرتنا الصغيرة ، مغامرة الغفير الآلى ، وكسب الغفير « شنبو » وكلبه الأجرب « شيبوب » المعركة ، والنتيجة اثنين صفر

لصالحه وكلبه القذر ، الذى لم يجد شيئاً فى العالم لارتدائه غير قميصى الجديد !

سادنا الوجوم نحن الثلاثة فى جلستنا على شاطىء النيل ، وأخذنا نعانى فى صمت وحزن بالغين .

تساءلت :

– وماذا بعد ؟

– نعم .. وماذا بعد؟

تساءل « جمعة » :

حسناً .. وماذا بعد ؟

تساءل « سالم » .

قلت مغتاظاً : لو أننا عثرنا على كنزنا ما حدث لنا كل ذلك .. ما كنا حصلنا على صفر فى امتحان التاريخ والجغرافيا ، ولا كنا فكرنا فى الغفير الآلى ، ولا كان أحد قد عاقبنا عقاباً مضاعفاً .. ولا استولى هذا الكلب القذر على قميصى !

وكان هذا أسوأ ما فى الأمر بالنسبة لى !

قال « سالم » بأسى : نعم .. لو كنا قد حصلنا على كنزنا ما حدث شىء من ذلك كله .. ولكننا لم نحصل على الكنز فكان طبيعياً أن يحدث ما حدث .. إنه سوء حظ !

تساءل « جمعة » : وهل نستسلم .. إن جدى العمدة فيما يبدو ينوى أن يجعل مهنتى طحن حبوبه بقية عمرى !

قلت بإشفاق : هذا سيىء .. لو كنت قد حصلت على نصيبك فى الكنز لابتعت له مطحنة آلية وتفرغت لمستقبلك .. ولكن هذا لم يحدث للأسف !

– نعم .. إنه لم يحدث للأسف ..

قالها « سالم » وهو يمسح ذرة تراب لا وجود لها فوق قميصه .

– هذا صحيح .. ولم يحدث للأسف .

كرر « جمعة » بأسى شديد وقد احمرت أذناه بالجزرة .

- حسناً .. وماذا بعد ؟

وهكذا عدنا إلى نقطة البداية من جديد ، وقلت ملخصاً الموضوع : إن مشكلتنا تكمن فى عدم عثورنا على الكنز .. وإذا كنا نريد العثور عليه فيجب أن نحدد مكانه أولاً ، ولا أحد يعرف مكان الكنز غير « حارحور » صديق صديقنا « جمعة » .. وعلينا أن ننتظر قدومه ليزور « جمعة » فى نومه ويدله على مكانه مرة أخرى !

قال « سالم » بحزن : ومن يدرى متى يزور « حارحور » صديقنا « جمعة » فى نومه .

وقال « جمعة » وهو يحك مؤخرة رأسه : نعم .. نعم .. من يدرى .. قد يمر على ذلك أعوام أكون قد طحنت فيها آلاف الأجولة من الذرة والقمح !

قلت بأمل : إذن علينا أن نستدعى نحن « حارحور » ولا ننتظر حضوره .

سألانى بدهشة :

- نستدعيه .. كيف ؟

تلفت حولى بحذر ، ثم تقاربت رؤوسنا وهمست لهما كأنى سأخبرهما بسر صنع القنبلة الذرية : هل سمعتما عن شىء اسمه تحضير الأرواح ؟

هز الاثنان رأسيهما بلا ، بطريقة دلّت على جهل منقطع النظير !

واصلت : أنا سمعت عنه .. إنه شىء بسيط .. نقوم ببعض الطقوس فى حجرة مظلمة مغلقة فتحضر روح من نريد ، وهى بالطبع روح « حارحور » فنسألها عن مكان الكنز بالضبط ، وبعد أن نعرف المكان نعيدها إلى مكانها .. إن المسألة بسيطة جداً كما ترون مثل لعبة الحجلة تماماً !

اعترض « جمعة » مندهشاً : ماذا .. وإذا رفضت روح « حارحور » الحضور ؟

قلت مؤكداً : إنها لا تملك الرفض .. ما أن نقوم بطقوسنا حتى تكون مُجبرة على الحضور .

ظهر شيء من القلق على وجه « جمعة » ، كأنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه متردد فى قوله ، وقدّرت أنه خائف على روح صديقه « حارحور » فأكدت له : لا تخشَ شيئاً .. إنها طريقة مضمونة جداً ولا تؤذى روح من يحضر .

سألنى « سالم » مبهوراً : وهل تعرف كيف تقوم بتحضير الأرواح لنستدعى روح « حارحور » ؟

– لا .. ولكن لدى جدتى كتاب لتحضير الأرواح ورثته عن جدها الذى ورثه عن جده والذى لا أعرف من أين أتى به ، وهذا الكتاب مبين فيه كيفية تحضير روح« حارحور » أو غيره ، ويمكننا استعارة الكتاب من جدتى ، بدون إعلامها طبعاً لأن الكبار يخشون على الصغار من تحضير الأرواح ، فبعد أن نعرف الطريقة من الكتاب نقوم بتحضير روح « حارحور » ونسألها عن مكان الكنز ، ثم نبحث عنه ونعثر عليه ، وهكذا تنتهى كل مشاكلنا .. ما رأيكما ؟

هز الاثنان رأسيهما موافقين بسرور بالغ .. فقد كانا

على استعداد تام لتنفيذ أى شيء يقربهما من الكنز .

وبهذا لم تعد أمامنا أى مشكلة أو عائق للحصول على كنزنا لتحقيق كل أحلامنا ليس فقط فى الثراء ، بل وفى معاقبة الغفير « شنبو » أيضاً ، فإن أى كنز عادة يكون بداخله مصباح سحرى ما أن تدلكه حتى يخرج لك جنى بطول النخلة لا يرتدى غير سروال حول وسطه ، وحلق كبير فى أذنيه ولا شيء آخر فى المعتاد ، وينحنى لك هذا الجنى باحترام بالغ وهو يقول لك : شبيك لبيك خدامك بين أيديك . وعندئذ وببساطة يمكننا أن نطلب منه إلقاء الغفير « شنبو » وكلبه « شيبوب » فى البحر فلا تقع عليهما عين بعد ذلك ، وبهذا لا يمكن للغفير « شنبو » أن يطاردنا أو يتلصص علينا ، ولن يكون فى وسع الكلب « شيبوب » أن يذهب ويجيء متباهياً بقميصى الجديد حول بدنه الأجرب من أجل أن يغيظنى !

إنها طريقة سهلة ومضمونة للتخلص منهما بدون الحاجة إلى غفير آلى يحتل مكانهما لدى العمدة !

واتفقنا على أن أحصل على كتاب تحضير الأرواح من دولاب جدتى ، وبعدها ستكون روح « حارحور » ملك أيدينا لنستدعيها متى نشاء لتدلنا على الكنز المخبوء منذ آلاف السنين .

وتفرقنا ثلاثتنا وكل منا يشعر أنه لا يفصله عن تحقيق أحلامه غير ساعات قلائل !

العبقرى سرخستان بلوستان !!

راقبت جدتى وهى جالسة تشتغل بالإبرة فى دثار صوفى ، بالرغم من أننا كنا فى بداية فصل الصيف ، وكنت جالساً أمامها فاتحاً كتاب القواعد النحوية أمام صفحة قاعدة « إن وأخواتها » وذلك بالضبط منذ ساعتين وخمس دقائق ، واضعاً قدمىَّ تحتى ، اليسرى فوق اليمنى كتمثال الكاتب المصرى الذى بقى على هذا الوضع آلاف السنين فأطلقوا عليه اسم تمثال الكاتب المصرى الجالس القرفصاء !

كنت أنتظر أن تذهب جدتى إلى فراشها فأحصل

على كتاب تحضير الأرواح ، ولكنها لم تتحرك طيلة هذا الوقت .

ونظرت جدتى نحوى مرة أو مرتين يطل من عينيها شيء من الدهشة ، ولكننى تظاهرت أمامها بالانشغال فى قراءة ما هو مكتوب أمامى ، فوقعت عيناى على كلام بأن هؤلاء الـ « إن وأخواتها » ينصبن المبتدأ ويرفعن الخبر ، بدون أن يوضح الكتاب السبب فى ذلك .. ولماذا لا تنصب (إن) الخبر وترفع المبتدأ وما الذى يمنعها من ذلك ؟

تثاءبت جدتى مرة أخرى .. وتوقفت عن شغل الإبرة – وكانت لمهارتها تعمل بها بدون الحاجة إلى النظر إليها – وبذلك كان يمكنها أن تدير معى حواراً لعدة ساعات تنتهى فيه من صنع دثارها ، على حين لا استطيع أنا شيئاً غير الرد على أسئلتها ، وهذه المهارة الحقيقية التى لا يصل إليها إنسان إلا متى بلغ السبعين من عمره كجدتى . وبعد لحظة سألتنى جدتى : ألم تتعب من المذاكرة .. إنك لم تتحرك من مكانك منذ ساعتين .

قلت بلطف كما يفعل الأولاد المهذبون مع جداتهم :

لا يا جدتى .. إن استذكار دروسى لا يتعبنى مطلقاً ، خاصة « إن وأخواتها » وبنات عمومتهن « كان وأخواتها » .

تفرست جدتى فىَّ بشك قبل أن تقول : ولكنك لم تقلب الصفحة منذ أن جلست أمامى قبل ساعتين ؟

تنبهت إلى أننى حقاً لم أقلب الصفحة بالفعل منذ جلوسى أمام جدتى .. وأنها فيما يبدو كانت تراقبنى ، فى نفس الوقت الذى كنت أراقبها فيه !!

قلت مرتبكاً : إننى أحفظ أسماء أخوات « أن » .. أنت تعرفين يا جدتى أنهن عديدات .. « لعل وليت وكأن ولكن » .. وهذا يتطلب وقتاً لحفظهن !

سألتنى جدتى بريبة :

– هل هذا هو ما حفظته منذ جلوسك أمامى ؟

أجبتها : إننى أحاول التركيز يا جدتى .. التركيز هو الأساس ، ثم يأتى الاستذكار بعد ذلك !

تثاءبت جدتى كأنها لم تسمعنى ، وقالت وهى تطوى

دثارها الذى اكتمل نصفه : ألن تذهب لفراشك ؟

شديدو الذكاء هؤلاء العجائز ! (ملحوظة : نفس الصفة عندما تطلق على الصغار يقال عنها خبث) . هى تتثاءب ثم تسألنى إن كنت أريد أن أنام أنا ؟

فلينم من يتثاءب ، هل سمع أحد عن تلميذ فى الصف الخامس الابتدائى - أو حتى فى الرابع الابتدائى - ينام قبل جدته ؟

أجبتها : لا يا جدتى .. ليس لى رغبة فى النوم الآن .. لن أنام قبل مراجعة الاسم والمبتدأ والخبر والفعل والضمائر وحروف الجر وحروف الجزم وبعدها المنقوص والممدود والمفرد والمثنى والمثلث والمربع والدائرة و ...

- هه ؟ ..

قاطعتنى جدتى محملقة فىَّ كما لو كنت أخبرها عن « الرخ » الذى صادف « السندباد » فى إحدى رحلاته السبع وطار به .

هززت كتفى وقلت : أنت ترين يا جدتى أن أمامى ساعات طويلة من المذاكرة قبل النوم !

نهضت وهى تقول : حسناً .. سأذهب لأنام أنا .. لا تسهر كثيراً حتى لا تؤلمك عيناك .

ونهضت وهى تلف دثارها الآخر حول كتفيها ، فى حين كان الجو حاراً جداً .

اتجهت جدتى نحو حجرتها وبعد لحظات سمعت صوت غطيطها والذى يشبه صفارة معطوبة عندما تنفخ فيها تصدر صوتاً لا هو بالصفير ، ولا هو بالصفير ، بل شىء أقرب إلىّ ما أسمعه الآن .. أقرب إلى الصفير وليس بصفير !

حان وقت العمل للحصول على كتاب تحضير الأرواح من دولاب جدتى .. وتسللت إلى حجرتها .. وكانت نائمة مثل طفل صغير فوق فراشها وقد انزاح الغطاء عن كتفيها فأسرعت بتغطيتها واتجهت نحو دولابها وفتحت أول ضلفة فشاهدت بداخلها أشياء عديدة

متنوعة .. مددت يدى أزيح تلك الأشياء المبعثرة فى ركن الدولاب .. سلسلة طويلة بهت لونها الفضى ، ويتدلى منها ما يشبه كرة صغيرة عليها رسوم ونقوش عجيبة لعلها كانت تميمة حظها منذ زمن ، وبعض الخرز الملون والبلى - تصوروا بلى فى دولاب جدتى ؟ - وأشياء متنوعة صغيرة مثل بعض الأوراق القديمة المتهرئة وحلق ذهبى كبير لم أشاهدها تلبسه من قبل و ..

عثرت يدى بكتاب .. لمعت عيناى فأسرعت أخرجه من مخبئه وألقى عليه نظرة سريعة .. قبل أن أحملق فى عنوان الكتاب ذاهلاً !

« اللص الظريف أرسين لوبين » !!

تصوروا جدتى تقرأ قصصاً لشخص يدعى « أرسين لوبين » .. والأكثر من ذلك أنه لص ؟

أعدت الكتاب مكانه ، وكان هناك عدد آخر من القصص عن شخص يدعى « روكامبول » و « شرلوك هولمز » .. لم يكن هناك وقت للتفكير

خرجت على أطراف أصابعى إلى حجرتى

فربما يعنيه ذلك وهل تعانى جدتى من مرض ما من أمراضه قراءة مثل هذه الكتب ؟

رحت أبحث بيدى عن الكتاب الذى أقصده فعثرت عليه أخيراً .. وأخرجته بحرص كما لو كان كنزنا الثمين وألقيت عليه نظرة سريعة لاهثة .. كان العنوان مكتوباً بخط اليد ويبدو عليه القدم الشديد وكان العنوان طويلاً عجيباً لم أسمع مثله فى حياتى أبداً .. كان العنوان هو « طرق تحضير الأرواح وفضح السر المباح وبل الورق فى الماء القراح على ضوء فجر الصباح » للمؤلف العلامة العبقرى « سرخستان باوستان أبو الرومى الأسمرى » !!

تعجبت .. هل سمع أحد عن كتاب له مثل ذلك الاسم أو عن مؤلف الاسم السابق ؟ وحمدت الله أنه ليس مقرراً علينا فى المدرسة وإلا انقضى أسبوع وأنا أحاول حفظ اسم الكتاب ومؤلفه !

أغلقت الدولاب بحرص وخرجت على أطراف أصابعى إلى حجرتى ، ثم أغلقت باب حجرتى جيداً

وقفزت إلى فراشى وقد شدتنى الإثارة فأخذت أتنفس بصوت عالٍ .

وأسرعت أصابعى تفتح الكتاب على صفحة فى منتصفه .. وكان بها رسوم لدوائر عجيبة الأشكال داخلها دوائر أصغر بداخلها مربعات ومثلثات ، وبداخل كل منها حروف متناثرة «سى» أو «ش» أو «ع» أو «ص» أو «م» .

كما كانت هناك أبراج وأشكال مربعة ومسدسة احتوت على نفس الحروف .. وبأسفل تلك الأشكال كانت توجد كلمات عجيبة لامعنى لها مثل «كيروستان جازو فلوبيتو كاسارولـــلا» أو «شيكوبيكـــو فتاكاتـــو طورشاكى» !!

- كساروللا وشيكوبيكو ؟ كانت الكلمات توحى أنه كتاب حاوى لاكتاب لتحضير الأرواح !

وحملقت فى الكتاب ذاهلاً بدون أن أفهم شيئاً مما أقرأه .. وقلبت الصفحة فوقعت عيناى على رسم فى أعلى الصفحة التالية يمثل شخصاً جالساً مغمض العينين

وأمامه إناء يتصاعد منه البخور .. ونفس الكلام العجيب أسفل الرسم من عينة « كساروللا وشيكوبيكو » .

أخذت أقلب بقية الصفحات .. كانت كلها متشابهة فأصابنى ذهول شديد ، كان واضحاً أن الكتاب مكتوب بلغة أخرى لاأعرفها ، أو لعله مكتوب بالشفرة بحيث لا يستطيع قراءته إلا من يملك مفتاح هذه الشفرة .. جدتى مثلاً ؟

هذا لا شك فيه ، فما دامت تقرأ قصص ذلك المدعو « أرسين لوبين » و « روكامبول » فلا شك أنها قادرة على قراءة مثل هذا الكتاب للمؤلف العلامة العبقرى « سرخستان بلوستان » والذى يبدو اسمه كنوع من الأعشاب ذات الأسماء اللاتينية .

وتصبب العرق فوق جبهتى .. فبعد كل هذا الجهد لا أحصل إلا على « كساروللا » و « شيكوبيكو » ؟

وكنزنا ، وتحضير روح « حارحور » ، والانتقام

من الغفير « شنبو » وكلبه « شيبوب » ؟

شعرت بغيظ شديد وأننى أريد تمزيق هذا الكتاب . ماذا سأقول لـ « جمعة » و « سالم » صديقىَّ وقد وعدتهما بإحضار الكتاب ؟ معضلة حقيقية مثل رسم خريطة أفريقيا مبيناً عليها أهم الشوارع الرئيسية !

لم يكن هناك مفر من الاعتماد على النفس بدون الحاجة إلى « فتاكوتا » أو « كساروللا » ، واهتديت إلى فكرة أعتقد أن نتيجتها ستكون ممتازة ، وهكذا أرجعت كتاب جدتى إلى مكانه ، وعدت إلى فراشى أتعجل ظهور النهار .

عشر شعرات .. من ذيل الحمار !

تحاشينا أى ذكر لكتاب تحضير الأرواح خلال الصباح التالى ، ومضت دروس ذلك اليوم بطيئة متثاقلة وكل من « سالم » و « جمعة » ينظران نحوى بلهفة ، فأجبتهما بابتسامة مطمئنة .

وما كاد اليوم الدراسى ينتهى حتى أسرعنا إلى شاطىء النيل فى مكاننا المعهود بعيداً عن أى رقابة أو تلصص . وقطعنا المسافة جرياً ، حتى إننا عند وصولنا كنا نلهث بشدة ، وسألنى « سالم » بلهفة : هل أحضرت الكتاب ؟

أجبته باسماً بهزة من رأسى .

- أين ؟

سألانى بصوت واحد منفعل .

أشرت إلى رأسى قائلاً : هنا !

تطلعا نحوى بدهشة شديدة فقلت شارحاً : لم أستطع إخراج الكتاب من مكانه فإن جدتى تتمم عليه كل صباح ، وستكتشف فقده إذا ما أتيت لأريكما إياه .. ولكننى قضيت الليل كله فى قراءته حتى حفظته عن ظهر قلب .

- إذن فأنت لم تحضره ؟

قالها « جمعة » وكأنه على وشك البكاء .

أجبته مطمئناً : وما الداعى لإحضاره إذا كنت قد قرأته وعرفت منه كيف يقومون بتحضير الأرواح ؟

- وماذا قرأت ؟

سألنى « سالم » مبهوراً .

- هذا سر !

قال « جمعة » متوسلاً : ولكننا أصدقاء ..

قال « سالم » مؤيداً : وسنحصل على الكنز معاً .

قلت أطمئنهما : المسألة بسيطة وإن كانت تتطلب خبرة ، وهو أمر يتوفر لى كما تعلمان !

ورمقتهما بنظرة واثقة ثم سألت : هل مع أحدكما كراسة جديدة وقلم لم يكتب به من قبل ؟

أبرز لى « سالم » كراسة جديدة وقلماً لم يستعمل بعد ، فأخذت أرسم بالقلم فوق أول ورقة فى أول الكراسة دوائر واسعة داخلها دوائر ضيقة ، وفى الحقيقة لم تكن دوائر بالمعنى المعروف بسبب تعرجها وانبعاجها ، وكان « سالم » يرسم أفضل منها - ولكنى من قرأ الكتاب لا هو ! - وبعد أن انتهيت من رسم الدوائر رحت أنثر بعض الحروف داخلها .

وأخذت أرقب « جمعة » و « سالم » وهما ينظران نحوى مبهورين كأننى ساحر سأخرج قطة من أنفى ، فتعمدت أن أزيد من عدد الحروف فى كل مكان بالورقة حتى لم يعد بها فراغ لحرف جديد ، وتأملت ما قمت به من عمل ثم قلت فى إعجاب شديد : رائع !

- هه ؟..

كان هذا هو تعليق « جمعة و « سالم » ، وكان لا بد أن أفسر لهما ما فعلت فقلت : هذه هى الخطوة الأولى ، فإن الروح لن تحضر إلا بواسطة هذه الرسوم والدوائر والمربعات المَوجودة فوق ورقة الطلسم ، فهى التى تحدد الطريق الذى تسلكه الروح من « هناك » إلى « هنا » .. إنها أهم جزء فى العمل كله كما ترياق !

تأمل « سالم » الرسم ثانية وقال : رائع !

وأعقبه « جمعة » بنفس اللهجة : ممتاز جداً !

قلت شارحاً : الخطوة التالية هى أن نجتمع فى غرفة مظلمة ونشعل بعض البخور ثم نبلل ورقة الطلسم فى كوب ماء « قراح » وبعد ذلك ..

قاطعنى « جمعة » بغباء كعادته عندما يمنعنى من الاسترسال حين أريد الاسترسال وسألنى : وما هو الماء القراح ؟

وتطلع « سالم » نحوى بنظرة متسائلة هو الآخر .

-هه ؟..

أجبتهما أنا وقد فوجئت بالسؤال ، وأجبتهما بعد لحظة تفكير قصيرة : وماذا يكون الماء القراح إذا لم يكن ماء الترعة ؟

اعترض « جمعة » : ولكن قريتنا لا يوجد بها ترعة ، فمن أين نأتى بالماء القراح ؟

أجبته حاسماً المسألة : إذن يكفى ماء النيل وسأتلو عليه بعض الأدعية فيتحول إلى ماء قراح .. إننى أعرف ما هو المطلوب تماماً فلا تقلقا !

- وبعد ذلك ؟

- الأمر بسيط للغاية ، فكما أخبرتكما فإن كل ما علينا هو الجلوس فى غرفة مظلمة وإشعال البخور ؟ ..

وتساءل « جمعة » ثانية : والبخور .. من أين نأتى به ؟

أجبته بغيظ من سخافة السؤال : من أين يأتى الناس بالبخور إن لم يشتروه من بائع البخور ؟

واصل « جمعة » اعتراضه : ومن أين سنأتى بالمال اللازم لشرائه ؟

كان سؤالاً وجيهاً ، فنظرت إلى « سالم » بدورى فقال : لقد أنفقت مصروفى كله فى شراء حقيبة مدرسية جديدة بدلاً من التى ضاعت منا الأسبوع الماضى .

وكان يلمّح فى ذلك إلى أننى السبب فى ضياع حقيبته عندما وضعها كعارضة للمرمى يوم لعبنا الكرة ، وبعد أن أنهينا المباراة لم نعثر لها على أى أثر ، فما ذنبى أنا ؟

نظرت إلى « جمعة » فأخرج جيوبه فارغة .. وهو الأمر المعتاد لها ، فلم يكن هناك أحد يعطيه مصروفاً ما ، بل إن جده العمدة عندما كان يعثر فى جيب « جمعة » على خمسة أو عشرة قروش يكون قد استدانها منا ليشترى بها شيئاً ما ، فإن العمدة يستولى من « جمعة » على النقود قائلاً : إن النقود تفسد أخلاق الأولاد الصغار . فى حين أننى أظن أن النقود تفسد أخلاق الكبار أكثر ، والمهم أننا امتنعنا عن

إقراض « جمعة » أى نقود خوفاً من أن تفسده !!

وكنت أنا محروماً من المصروف من جدتى كقرارها لعقابى .

قلت لأحل المشكلة : حسناً لا داعى للبخور .. يمكننا أن نحرق بدلاً منه بعضاً من أغصان أشجار « الكافور » .. لقد احتاط مؤلف كتاب تحضير الأرواح لمثل هذه الصعوبات فوضع البديل المحلى للبخور .

ولكن لا توجد فى قريتنا أشجار كافور .

اعترض « سالم » هذه المرة .

زفرت بغيظ : حسناً .. إن الكتاب لم يترك هذه المسألة أيضاً بلا حل .. فإذا لم توجد أغصان « الكافور » بدلاً من البخور فيمكن إحراق بعض أغصان « الصفصاف » مع قليل من شعر ذيل الحمار .

قال « جمعة » بسرور : يا له من مؤلف متساهل ، ما أكثر الحمير فى قريتنا !

ولم يكن يقصد جده العمدة بالطبع !

وقال « سالم » : تتبقى الغرفة المظلمة .. إن أحداً منا لا يستطيع أن يجرى التجربة فى بيته .

هززنا رؤوسنا بنعم .. لم يكن أحدنا يستطيع إجراء التجربة فى بيته أو المجازفة والمخاطرة ، وقال « جمعة » كأنه يتعمد تعطيل المسألة : والمنضدة التى ستجرى عليها التجربة من أين سنأتى بها .. والمقاعد أيضاً ؟

أغاظنى اعتراض « جمعة » ، إذ كان يبدو وكأن لا عمل له سوى اعتراضى فى ذلك اليوم .

زفرت بغيظ : يمكن الاستعاضة عن المنضدة بـ « طبلية » .. أما المقاعد فيمكن استبدالها بالأرض !

« سالم » : إذن تتبقى الغرفة المظلمة.. من أين نأتى بها ؟

وتتطلع « سالم » نحونا متسائلاً كأننى حاوٍ سأخرج له غرفة مظلمة من جيبى أو من حقيبة المدرسة .

وقال « جمعة » : ألم يذكر المؤلف أى بديل للغرفة المظلمة ؟

أجبت بسرعة : لقد ذكر المؤلف البديل طبعاً .. ففى حالة عدم وجود غرفة مظلمة فإن البديل يكون حظيرة بهائم مظلمة !

– حظيرة بهائم ؟

نطق الاثنان ذاهلين .

هززت كتفى : لا تلومانى أنا .. لوما المؤلف .. وأظن أن المسألة لها علاقة بالرائحة !

تساءل « سالم » : ولكن من أين نأتى بهذه الحظيرة المظلمة ؟

وكان الوحيد الذى يمتلك حظيرة هو « جمعة » – أقصد جده – فإن « جمعة » لم يكن يملك أى شىء فى هذا العالم – وكان ملحقاً بمنزل العمدة حظيرة كبيرة البهائم والماشية وكانت مظلمة دائماً ، فما حاجة الأبقار أو الماعز أو الخراف إلى الضوء ما دامت ليست هناك دروس مقررة عليها لاستذكارها ؟

وفهم « جمعة » ما يدور بعقلنا فقال متوسلاً : لا .. أرجوكما .. لو عرف جدى العمدة فسوف ..

قاطعته : وما الذى سيجعله يعرف .. إن المسألة سر بيننا وما أن تحضر روح « حارحور » ونعرف مكان الكنز حتى تنتهى المسألة ، وحتى لو عرف جدك العمدة فهل سيعاقبك بأكثر مما عاقبك ؟ .. إنه من المنتظر أن تدش له حبوبه وتطحنها إلى أن تموت ، فهل تظن أنه قادر على استدعاء روحك بعد ذلك لتطحن له حبوبه ؟

نظر « جمعة » نحوى بقلق وقال « سالم » له : المسألة هى هل تريد مشاركتنا فى الحصول على الكنز أم لا ؟

– أريد طبعاً .

قالها « جمعة » وهو يبتلع لعابه بصوت يشبه صوت فك الجمل عندما يجتر طعامه .

وقلت بحسم : حسناً .. إذن لا مفر من استخدام حظيرة مواشى جدك العمدة .

وهكذا أقفلنا باب النقاش . واتفقنا على أن نقوم بعملنا ليلاً ، وانتزعنا بعض أغصان صفصافة قريبة ، على أن نحصل على شعر ذيل الحمار من حمار العمدة ، وأن يأتى « سالم » بكوب الماء الذى سنبلل فيه ورقة الطلسم ، ثم تفرقنا على وعد بالتلاقى فى المساء .

جمعة فى قبضة العمدة

كان الهدوء يسود المكان وقد أخفى الظلام معالمنا نحن الثلاثة ، وكنت أول الواصلين ومعى أغصان الصفصافة وعلبة الثقاب ، وتبعنى « سالم » ومعه أكواب الماء والورقة المطلسمة .. ثم « جمعة » وكانت أذناه الطويلتان محمرتين بشدة كأنه قلاهما فى محمصة قبل مجيئه .

– هيا بنا .

قلتها وأنا أتقدمهما كأننا سنخوض حرباً .

وتسللنا ثلاثتنا من باب الحظيرة المفتوح إلى الداخل .. وكان المكان مظلماً والرائحة لا تطاق ،

رفس الحمار جمعة فى غضب شديد

وبعد لحظات اعتادت عيوننا الظلام فلمحنا بعض الأبقار والخراف والمعيز داخل الحظيرة ، وهى مربوطة فى أماكنها بأوتاد فى الأرض ، كأن العمدة يخشى عليها من أن تطير .. وراحت كلها ترمقنا بعيون فضولية وكفت عن التهام ما أمامها من قش وتبن وبرسيم .

- أين الحمار ؟

تساءل « سالم » .

ونهق الحمار فى تلك اللحظة بطريقة مفاجئة ألقت الرعب فى قلوبنا فارتعدنا وأسرعنا نتماسك بشدة ، ثم ما لبثنا أن خجلنا وتفرقنا ، وصحت فى الحمار : كُف عن هذا النهيق أيها الحمار وإلا انتزعنا ذيلك كله لا بعض شعره فقط !

كف الحمار عن النهيق وإن ظل يراقبنا بعينيه الواسعتين الغبيتين كأنه يهددنا أنه سيشى بنا عند العمدة إذا حاولنا القيام بأى ألاعيب معه !

قلت « لجمعة » : هيا فلا وقت لإضاعته ، فلتحصل على بعض شعر ذيل الحمار يا « جمعة » .

أوشك « جمعة » على الاعتراض فأسرعت أقول : إنه حمار جدك وأنت أكثر الناس دراية بشعر ذيله !!

ظهر التردد على وجه « جمعة » ، واحمرت أذناه أكثر من ذى قبل ، ولكن أمام منطقى البليغ لم يستطع الاعتراض ، واتجه ببطء نحو الحمار ووقف أمامه متردداً ثم سألنى : هل تكفى شعرة واحدة ؟

أجبته ساخطاً : ماذا .. أتظن أننا سنحضر روح كلب .. إنها روح « حارحور » قائد جيوشك !

ابتلع « جمعة » لعابه بصوت مسموع ، كأنه يلوم نفسه بشدة على إطاعته لنا ، فقلت له : ليس أقل من عشر شعرات .. هذا مذكور فى الكتاب صراحة .

مد « جمعة » يداً مرتعشة متردداً ، وشجعته قائلاً : هيا يا « جمعة » ، إن الأمر بسيط جداً ، كأنك تلتقط برغوثاً من ظهر كلب !

حسم « جمعة » تردده ومد أصابعه نحو ذيل الحمار وانتزع بضع شعرات منه بطريقة مفاجئة ، ولم

نره إلا وهو - « جمعة » لا الحمار - يطير فى الهواء بعد أن رفسه الحمار ، ثم سقط فى ركن الحظيرة مثل جوال تبن !

اندفعنا نحو « جمعة » فوجدناه يتألم من شدة الرفسة ، على حين أخذ الحمار ينهق بقوة وهو يجز على أسنانه ، وينظر نحونا بعيون نارية كأننا قتلنا أباه !

انحنينا على « جمعة » المتألم وسألناه : هل أصابك شيء ؟

قال متألماً بشدة : إن قدمى ..

قاطعته : ستشفى .. المهم هل حصلت على شعر ذيل الحمار ؟

فرد « جمعة » يديه فكانت بها شعرات سوداء ثمينة من ذيل الحمار ، فابتسمت بسعادة .. لقد حصلنا على شعر ذيل الحمار فى النهاية وهذا يكفى ، مهما كانت المصاعب التى لاقيناها فى سبيل ذلك !!

وبهذا تهيأت الظروف لنقوم بعملنا الفريد ..

استحضار روح « حارحور » صديق صديقنا « جمعة » ومرشدنا إلى كنزنا .

أحضرنا الطبلية المطلوبة وكانت فى أحد الأركان وتستعمل لتنقية الفول قبل تعبئته فى الأجولة ، وجلسنا ثلاثتنا حولها على حين كفت الحيوانات عن التهام طعامها وانصرفت عنه تماماً ، وحملقت فينا بشدة أكثر .

قلت مبتدئاً العمل : والآن سنشعل البخور .. أقصد أغصان الصفصاف .

وأخرجت الكبريت وأشعلت عوداً توهج فى ظلام الحظيرة ، ومددت العود المشتعل نحو أغصان الصفصاف التى أحطناها ببعض الورق حتى تمسك بها النار .. وأمسكت النار بها بالفعل فألقيت عود الكبريت خلفى ، ووضع « جمعة » شعر ذيل الحمار فوق الأغصان والأوراق المشتعلة فتصاعدت منها رائحة كريهة ، وبعدها وضعنا ورقة الطلسم المطلوبة فى كوب ماء .. وبذلك قمنا بكل ما هو مطلوب منا .

– والآن هل ستحضر روح « حارحور» ؟

سألنى « جمعة » بصوت مبهور .

– لا .. إن الطقوس لم تكتمل بعد .. أغمضوا عيونكم وسأنطق ببعض الأدعية والطقوس لاستحضار روحه .. إنه قائد جيوش وكثير المشاغل وليس من السهل استدعاء روحه .

وحذرتهم قائلاً : حذار أن يفتح أحدكم عينيه لأى سبب إلا عندما أطلب منه ذلك وإلا فشلت التجربة .. والآن لتتماسك أيدينا ونغمض عيوننا .

ومددنا أيدينا وتماسكنا فوق الطبلية وأغمضنا عيوننا . وأحسست بقلبى يدق عنيفاً كأنه قرع طبول فأخذت أتنفس بصوت عال .

ومرت لحظة قبل أن يسألنى « جمعة » : لماذا لا تنطق بأدعيتك ؟

– صه أيها الأحمق . نهرته أنا ، ثم قلت : إن الأدعية لا تقال هكذا اعتباطاً وإلا حضرت روح أخرى غير التى نريدها .

وشعرت بشىء يأج خلفى ، ولكنى لم أشأ فتح عينى ، بل رحت أتذكر ما قرأته فى كتاب جدتى ، ثم تلوت بصوت مهيب : « كيروستان جازوفلوبيتو كساروللا » . وصمت لحظة ثم أضفت : « شيكوبيكو فتاكوتا طورشاكى » . ومرت لحظة ثم أعدت ترديد تلك الأقوال .

وأحسست بأصابع « جمعة » ترتعش فى أصابعى وهمس يسألنى : هل حضرت الروح .. هل أفتح عينى لأراها ؟

همست به غاضباً : قلت لك اصمت .. إن الأدعية لم تنته بعد .. هل تظن أن الأرواح تحضر بسهولة هكذا .. ما زال هناك الكثير من الأدعية الأخرى .

صمت « جمعة » وإن زادت ارتعاشته ، وكان يمكننى أن أراهن بأن أذنيه قد صارتا بلون عصير الطماطم حتى بدون أن أفتح عينى لأتأكد . وكان علىَّ مواصلة أدعيتى ، ولم يكن لدىَّ ما أقوله فقد قلت ما أعرفه ، وتذكرت اسم الكتاب فقلت بنفس الصوت

المتهدج : السر المباح .. الماء القراح .. فجر الصباح ..

بدأت أصابع « سالم » ترتعش هى الأخرى ، فسألته : ماذا بك يا « سالم » ؟

قال وهو يرتعدأكثر : أشعر بحرارة شديدة حولى .

قلت مطمئناً : هذه من علامات قرب حضور روح « حارحور » العظيم !

قال « جمعة » بارتعادة أشد : إن الحرارة لا تطاق . أحس بعرقى ينهمر كالمطر .

وكنت بالفعل أشعر بحرارة شديدة كأننى أجلس بالقرب من جمر أو أتون مشتعل ، وكان صوت التأجج يتصاعد من حولنا بشدة .

قلت لأطمئن « جمعة » و « سالم » وعيناى لا تزالان مغمضتين : هذه علامة من علامات حضور « حارحور » ، سوف يحضر بعد الدعاء التالى . وصمت لحظة متذكراً اسم مؤلف الكتاب وقلت :

« سرخستان بلوستان أبو الرومى الأسمرى » .. « سرخستان بلوستان أبو الرومى الأسمرى » . وكنت على استعداد لتكرار اسم المؤلف ألف مرة لاستحضار روح « حارحور » لولا أن أوقفنى فجأة صوت اضطراب حولى ، وتعالت أصوات الحيوانات بالحظيرة ، كأنما يطاردها شيطان ، فنهق الحمار بجنون ، وخارت الأبقار فى رعب ، وثغت الماعز باضطراب شديد وهى تقفز هنا وهناك ، كما لو كان ركبها شيطان ، وكنت أسمع دقات أرجلها كقرع الطبول بدون أن أجرؤ على فتح عينى .

وقال « جمعة » فى رعب بدون أن يجرؤ على فتح عينيه أيضاً ماذا يحدث حولنا ؟

طمأنته وأنا أتصبب عرقاً : الروح .. إن روح « حارحور » توشك أن تأتى ولذلك أصيبت الحيوانات بالاضطراب لأنها تشعر بذلك .

وفى تلك اللحظة شعرت بشىء يلسعنى فى قدمى فجذبتها بعيداً .. ولكن قدمى الأخرى لسعتنى ، ثم يدى

وبعد ذلك قفاى ، ففتحت عينى ذاهلاً وأنا لا أدرى سر هذه اللسعات .. فيا لهول ما رأيت !

كانت الحظيرة تحترق ، وقد أمسكت النار بجدرانها وأرضيتها وبالقش والتبن وكل شىء فيها ، والحيوانات تحاول حل قيودها والهرب فى اضطراب عظيم .

وكان من الواضح أن عود الكبريت المشتعل الذى ألقيته خلفى هو الذى تسبب فى تلك الكارثة .

وصرخت بلا وعى : نار .. حريق .. لنسرع بالهرب والفرار قبل أن نحترق .

وقفزت نحو باب الحظيرة ، وفتح « جمعة » و « سالم » عيونهما ، وما كادا يشاهدان النار حتى أصيبا بهلع ورعب واندفعا خلفى بجريان كالمجانين .

وفوجئنا فى اندفاعنا بالعمدة الذى جاء مهرولاً وهو يصرخ برعب بدون أن يتبيننا بسبب الظلام : النار .. النار .. انقذوا الحمار .. انقذوا الأبقار .

وفى غمرة اضطرابنا اصطدمنا بالعمدة بلا قصد ،

ولسوء الحظ تعثر « جمعة » فى جده العمدة لشدة رعبه ، وقبل أن ينهض ليواصل فراره خلفنا أمسك جده العمدة بتلابيبه ، وحدَّق فيه ذاهلاً على ضوء لهب الحظيرة المشتعلة وهتف غير مصدق : « جمعة » ؟!

جمعة مربوط فى شجرة

مسكين صديقنا « جمعة » .

وما أقسى جده العمدة .. وحمداً لله أن جدى قد توفاه الأجل قبل أن يصير عمدة ، وإلا كان علىَّ أن أعانى مثلما عانى « جمعة » مع جده العمدة ، عندما أمسك به متلبساً وهو يهرب من الحظيرة المحترقة !

إن الأمر هذه المرة لم يقتصر على طحن ودش الذرة ، بل تعداه بأن قام العمدة بربط ذراعى « جمعة » حول جذع شجرة ، وأخذ يضربه على مؤخرته بعصا غليظة و« جمعة » يستغيث ولا مغيث .

أنا شخصياً دمعت لهذا المنظر وإن لم تسقط دموعى .

كنا أنا و « سالم » حسنى الحظ لأن العمدة لم يشاهدنا عند هروبنا من الحظيرة المحترقة .. وهكذا أصبح « جمعة » هو المتهم الوحيد أمام جده العمدة ، وبنبالة وشهامة تحمّل « جمعة » العقاب كله ، وأنكر أن أحداً كان معه فى الحظيرة ، وقال إنه كان يقوم بتجربة علمية قرأها فى كتاب « الصف الثالث الإعدادى لتحضير غاز الأمونيوم » من مخلفات الأبقار ، عندما حدث الانفجار - انفجار غاز الأمونيا وليس المخلفات - واشتعلت النار فى الحظيرة .. وحمداً لله أن العمدة لم يكن ليفهم فى لغة النهيق ، وإلا أرشده حماره علينا ، خاصة وقد انضم إلى قائمة أعدائنا بعد تلك الحادثة التى تسببت فى احتراق ذيله !

وبرغم أن أهل القرية سارعوا فى إطفاء حريق الحظيرة فلم تصب بخسائر تذكر ، فيما عدا احتراق جلود الأبقار ، وتهدم مؤخرة الحظيرة واختناق المعيز ،

وامتداد النيران إلى شونة العمدة فأحرقت أردب الذرة الذى دشه « جمعة » - قال بعض سيئى الظن إن « جمعة » كان هدفه من حرق الحظيرة هو التخلص من الذرة المطحونة غيظاً لأن جده لم يمنحه أجراً على طحنها ، ويا لسوء ظن الناس هذه الأيام !! - أما آخر الخسائر فكانت احتراق ذيل الحمار ، وهو الذى اعترض بالرفس على حصول « جمعة » على عدد من شعر ذيله ليس إلا ، فما بالكم وقد احترق ذيله بالكامل ؟

برغم كل هذه الخسائر (البسيطة) فقد عاقب العمدة « جمعة » بأن ربطه فى الشجرة وأخذ يضربه بطريقة مهينة أمام جميع أهل القرية ، خاصة الغفير « شنبو » وكلبه « شيبوب » والأستاذ « زلطة » .

أى قسوة تحملها « جمعة » فى نبالة ، والجميع يضحكون فى سرور وسخرية عليه ، فى حين كان هو يصرخ فى ألم شديد للضرب على مؤخرته ، حتى إن الضرب منعه - فيما بعد - من القدرة على الجلوس ثلاثة أيام متواصلة !

واجتمعنا فى يوم الجمعة وشعور بالأسى يشملنا وقلت : إذن فلا كنز ما دمنا لم نستطع تحضير روح « حارحور » ؟

وقال « سالم » بحزن : يبدو أننا أخطأنا فى شىء ما .. ربما لم تكن الطقوس مضبوطة وبدلاً من أن يحضر « حارحور » حضرت نار أحرقت الحظيرة !!

قلت مؤمناً على حديثه : معك حق .. ربما كان السبب هو أن شعر ذيل الحمار لم يكن بالعدد المضبوط !

وهى أمور كما ترون لا دخل لنا فيها ، فلماذا يعاقب « جمعة » من جده ؟

ونظرنا نحو « جمعة » بإشفاق . كان يجلس بجوارنا - أخيراً استطاع الجلوس - وكانت رأسه منكسة فوق الأرض وهو ينكش بأصابعه فى التراب بدلاً من أن يهرش بها مؤخرة رأسه كعادته . ولم تكن أذناه حمراوين كالعادة مما أدهشنا ، فهو يعنى أن « جمعة » على وشك اتخاذ قرار جلل .. قرار ربما

يتحكم فى مصيره بقية حياته ، فهل يكون قد قرر أن يغير مستقبله فلا يصير حاوياً مثلاً ؟

ورفع « جمعة » عينيه إلينا ، وكان بهما حزن شديد لم أره فيهما من قبل .

وقال « جمعة » : لقد نويت على الهجرة والعيش وحدى بقية عمرى بعيداً عن الناس كلها .

- ماذا ؟

نطقنا أنا و « سالم » بصوت واحد بعد أن فوجئنا بما قاله .

كرر « جمعة » : الهجرة .. لم يعد لى مكان هنا .. لا أحد يحبنى خاصة جدى العمدة ، لذلك سأهاجر لأعيش فى خلوة بقية عمرى .

سأله « سالم » مندهشاً : وأين ستهاجر .. إن الهجرة تتطلب نقوداً وجواز سفر وتأشيرات وأشياء من هذا القبيل .

قال « جمعة » : إننى لا أنوى الهجرة إلى أى بلد آخر .. سأهاجر إلى « قبور الفراعنة » .

قال « جمعة » مهوناً : يمكنكما أن تأتيا لزيارتى بين الحين والآخر .

لم أستطع حبس دموعى أكثر من ذلك لشدة تأثرى فقلت وأنا أحتضنه : هل تظن أننا سننساك .. سوف نأتى لزيارتك مرة كل أسبوعين أو ثلاثة .

واحتضنه « سالم » أيضاً وهو يقول : وسنجلب لك معنا الجرائد اليومية لتقرأها .

وقلت أنا مؤكداً : ويمكننى أن أحضر لك ما يستعصى علىَّ من مسائل الحساب لنحلها معاً .. وإذا ما عثرنا على الكنز وجدنا أنا و« سالم » فلن ننساك .. فسوف نعطيك الربع !

قال « جمعة » بتأثر : أنا مقدر لكما ذلك كله ، وكل ما أرجوه أن تصحبانى إلى مكان « هجرتى » وتعودا بعدها وجدكما وتتركانى وسط المقابر لشأنى وخلوتى .

وبالطبع لم نكن نستطيع الرفض ، خاصة وصديقنا

قلت مندهشاً : ماذا ؟ .. هل أنت مجنون لتعيش وسط القبور ؟

قال بتصميم : أرجوكما لا تجادلانى .. إننى على الأقل لن أجد هناك من يلومنى أو يعاقبنى باستمرار مثلما يفعل جدى .

وبمرارة أكمل : ثم إننى لا أستطيع تحمل المهانة والسخرية من الجميع بعد أن ربطنى جدى العمدة فى الشجرة وضربنى فوق مؤخرتى !

وكان « جمعة » محقاً فى ذلك ، وقد ناله من سخرية الجميع الكثير ، ولذلك تفهمنا قراره بالهجرة ، ويبدو أنه فكر فيه طويلاً قبل أن يستقر عليه ، وأى معارضة من جانبنا ستلاقى رفضاً منه ..

تصوروا صديقنا « جمعة » الحبيب يعيش بقية عمره فى زهد كالناسك منقطعاً عن الحياة ومباهجها ولعب كرة القدم والحجلة ؟ ولو كنا قد حصلنا على كنزنا لاختلف الأمر تماماً !!

« جمعة » يطلب منا طلبه الأخير .. وكان علينا أن نذهب بصديقنا « جمعة » .. ثم نعود بدونه ، فيا لهذه الدنيا التى لا أمان لها .. وكل ذلك لأنه أحرق حظيرة جده العمدة !

كنز الغفير شنبو وكلبه شيبوب

أعددنا عدتنا لتوديع صديقنا « جمعة » فجلبت له كل ما استطعت الحصول عليه من المنزل ، كعكة بالقشدة كانت جدتى تجهزها لعشائها مع تفاحة ناضجة ، وحصالتى التى بها ما يزيد على الجنيهين ادخرتهما خلال العامين السابقين .

لم أكن أعرف ما الذى يستطيع أن يشتريه « جمعة » بهذه النقود وسط المقابر ، وربما فى يوم ما أذهب لأقترض منه هذه النقود !

أما « سالم » فأحضر له كتاباً عن فن تنسيق الزهور - تصوروا « جمعة » يعيش وسط المقابر

ويقرأ كتاباً عن تنسيق الزهور ؟ - وتقبّل « جمعة » هدايانا بتعبير بالغ التهذيب والتقدير لمشاعرنا الطيبة .

وهكذا اتجهت مسيرتنا نحو القبور الفرعونية الراقدة قريباً من حضن الجبل على مسافة من قريتنا .. يا لتلك القبور التى نبشنا قريباً منها للبحث عن كنزنا ، ذلك الكنز الذى بدأت به الأحداث السابقة كلها عندما زار « حارحور » صديقنا « جمعة » فى منامه .. لو أنه فقط دلّه على مكان الكنز بدقة ؟

واصلنا سيرنا فى صمت بدون أن يصادفنا أحد ما .. لا الغفير « شنبو » ولا كلبه « شيبوب » ولا حتى الأستاذ « زلطة » ، أو أى أحد آخر ممن نعرفهم . كأن الجميع اختفوا ليتركونا فى ذلك الصمت المؤلم وحدنا .

وصلنا أخيراً إلى المكان الذى نقصده .. وكانت الحفر التى صنعناها لا تزال أمامنا لم يبذل إنسان مجهوداً لردمها أو مواصلة الحفر فيها .. وكان القمر مكتملاً فى السماء ينير كل شىء حولنا ، ولربما لو كنا

فى ظروف أخرى لواصلنا حفرنا بحثاً عن كنزنا المخبوء .

ولكن « جمعة » كان يزمع الهجرة فكان يتعين علينا أن نتخلى عن فكرة العثور على كنزنا مؤقتاً .

- لقد وصلنا .

قلت أنا .

- نعم .. لقد وصلنا .

قال « سالم » .

وهز « جمعة » رأسه متنهداً ، واحمرت أذناه كأنها تقول أيضاً نفس العبارة .. ووقف « جمعة » يهرش مؤخرة رأسه فانتظرنا عليه صابرين ، إذ لم يكن من اللائق أن نتركه وهو يحك مؤخرة رأسه ، فالأصدقاء الأوفياء لا يفعلون ذلك ! -

وقال « جمعة » أخيراً وهو ينظر نحونا بأسى : حسناً .. تستطيعان الذهاب الآن .

- هل أنت واثق أن كل شىء على ما يرام ؟

سألته بقلق .

هز رأسه مرة أخرى ، ومدَّ يده اليمنى يأخذ الأشياء التى أحضرناها له ، على حين مد يده اليسرى ليواصل هرش مؤخرة رأسه ، حتى أننى شككت فى أنه أصيب بالجرب فى قفاه !

عانقنا بتأثر ثلاث مرات ، وقال « جمعة » فى المرة الأخيرة : لا تخبرا جدى العمدة أو أى شخص آخر عن مكانى .

وعدناه بذلك ، إذ ليس من الإنصاف أن يجلب العمدة حبوبه إلى « جمعة » وسط القبور ليطحنها له هناك !

- وداعاً ..
- وداعاً ..

ودعنا « جمعة » .

- وداعاً ..
- وداعاً ..

ودعناه مرة أخرى بدون أن نجرؤ على مغادرة المكان ونتركه وحده ، ففى تلك اللحظة فقط أدركنا شدة

الخسارة التى ستلحق بنا بهجرة « جمعة » ، وكنا نريد إطالة اللحظات الأخيرة ونحن برفقته قبل أن نغادره ، فلانعود نشاهد أذنيه المحمرتين كالجزرة قبل أسبوعين أو ثلاثة .

- وداعاً ..
- وداعاً ..

ودعناه وعانقناه مرة رابعة . وأخيراً لم يكن هناك مفر من الرحيل وترك « جمعة » لخلوته .

عانقناه مرة خامسة وأخيرة ، وانفلتنا منه بصعوبة قبل أن نجهش بالبكاء ، وأمسكت بيد « سالم » قائلاً بصعوبة وتأثر : هيا بنا .

وبصعوبة بالغة تحركنا مبتعدين .. وما كدنا نخطو خطوتين حتى توقف « سالم » وهتف بى : انتظر يا « علاء » .

وظننت أنه يريد الرجوع إلى « جمعة » ليخبره بشىء ما ، ولكنه أشار إلى نقطة بعيدة كانت تبدو واضحة تحت ضوء القمر ، وكانت لشخص غليظ قوى يسير وبجواره شىء قصير يتواثب حوله .

وهتفنا بصوت واحد غير مصدقين بعد أن تعرفنا على الشبحين البعيدين : الغفير « شنبو » وكلبه « شيبوب » ؟!!

وبدون أن ندرى قفزنا داخل أول حفرة صادفتنا .

وأسرع « جمعة » فألقى بنفسه خلفنا مختفياً هو الآخر ، خوفاً من أن يراه الغفير « شنبو » .. وهكذا تجمعنا ثلاثتنا ثانية ، و « جمعة » لم يكد يبدأ هجرته !

قلت هامساً مرتعداً : ما الذى يفعله الغفير « شنبو » هنا ؟

رد « جمعة » وهو يرتعد أكثر : لقد جاء ليمسك بى ويعيدنى إلى جدى .. هذا لا شك فيه .. إنه يريدنى أن أطحن الحبوب طوال عمرى ، ويشاهدنى مربوطاً فى الشجرة طوال عمرى .. ولكننى لن أطحنها .. لن أطحنها .

وأخذ يرتعد وهو يردد عبارة « لن أطحنها » فأخذنا نهدئه ونطيب خاطره حتى هدأ تماماً ، وإن كانت أذناه قد احمرتا أكثر عن ذى قبل ، وراحتا ترتعشان بشدة

هتفنا غير مصدقين : الغفير شنبو وكلبه شيبوب ؟

كأنهما تهتفان أيضاً : لن أطحنها .. لن أطحنها !!

اقترب الغفير « شنبو » أكثر فأصابنا رعب هائل ، حتى أننى كدت أفقد وعيى ، وتخيلت نفسى واقفاً مع « سالم » و« جمعة » فى دوار العمدة ثانية وقد انكشف كل شىء ، ومقدار العقاب والسخرية التى سنلاقيها هذه المرة .

ولكن الغفير مرَّ من أمامنا على مسافة خطوات ولم يلتفت إلى حفرتنا التى اختفينا فيها ، بل سار مبتعداً تجاه المقابر تبدو عليه الجدية الشديدة ، وحتى كلبه كان ينظر خلفه فى ريبة هنا وهناك كأنه لص يخشى أن يضبطه إنسان متلبساً بالجرم المشهود !

– لقد ابتعد عنا هو وكلبه .

– هذا صحيح .. يبدو أنه لم يكن يقصدنا نحن .

– إذن ما الذى جاء به إلى هنا ؟

– إنه نفس الشىء الذى جاء به المرة السابقة ، عندما ضبطنا ونحن نحفر الكنز .. لقد وضح الأمر .. إنه يسعى خلف شىء آخر وليس خلفنا نحن بالذات .

– وما هذا الشىء الذى يسعى خلفه ؟

كنت أنا الذى طرحت السؤال الأخير ، ولكن أحداً منهما لم يكن يعرف إجابته فقلت بتصميم : علينا أن نكشف السر وراء هذا الخفير وكلبه .

– ولكن ..

اعترض « سالم » بقلق .

أسرعت أقول : إنها فرصة ذهبية يجب ألا نضيعها .. هيا بنا .

وأسرعت قافزاً من الحفرة فتبعنى « سالم » و « جمعة » على الفور ، وقد تبخرت أحلام الهجرة من رأس « جمعة » ، وعاد « جمعة » الذى أعرفه تماماً بأذنيه الكبيرتين المحمرتين دوماً .

وانطلقنا فى خفية كالأرانب البرية نراقب الغفير « شنبو » عن بعد ، بدون أن يحس بنا لا هو ولا كلبه الأجرب القذر .

* * *

توقف الغفير « شنبو » أخيراً أمام إحدى المقابر الكبيرة المهملة المتناثرة هنا وهناك ، وأخرج معولاً كان يخفيه وبدأ يحفر الأرض ، على حين بقى كلبه يراقب المكان أفضل مراقبة ، كما يفعل اللصوص المحترفون ، مما يقطع بأن له تاريخاً طويلاً فى الإجرام ، ولعله مطلوب القبض عليه فى جرائم سابقة !

تبادلنا النظر مندهشين ونحن نتساءل : ما الذى يبحث عنه الغفير « شنبو » ..

واهتدينا إلى إجابة واحدة : كنزنا !!

قال « سالم » بصوت غليظ لأول مرة أسمعه منه : لقد عرف مكان كنزنا قبلنا هذا الغفير الخبيث .. ولا بد أنه يبحث عنه ليأخذه لنفسه .

قال « جمعة » : هذا واضح .. إن هذا يفسر عداءه لنا حتى يبعدنا من هنا ويخلو له الجو للحصول على كنزنا فيقتسمه مع كلبه ويحرمنا منه !

قلت متحفزاً وأنا أستعد للقفز مثل « كانجارو »

غاضب : ماذا تنتظران ، هيا بنا نهاجمه ونمنعه من الحصول على كنزنا .

ولكن « سالم » أمسك بى قائلاً : انتظر .. من الأفضل أن نتمهل حتى يخرج الغفير الكنز ثم نأخذه منه بعد ذلك بدون أن تتسخ ملابسنا كالمرة السابقة .

ونفض ذرة تراب بطريقة دلّت على أن اهتمامه بنظافة ملابسه يفوق اهتمامه بالحصول على الكنز .

وأيده « جمعة » : معك حق .. من الأفضل أن ندعه يحفر وحده .. وبعد ذلك نأخذ نحن الكنز بدون أن نبذل مجهوداً .

ووجدت أن الفكرة وجيهة فوافقتهما .. وظللنا قرابة الساعة واقفين بدون أن يطرف لنا جفن نشاهد الغفير يحفر عن بعد ، حتى قام بصنع حفرة واسعة ثم اختفى داخلها .. ويبدو أنها كانت تؤدى إلى سرداب فى باطن الأرض ، فأخذنا نقترب أكثر وأكثر خاصة بعد أن اختفى الكلب داخل الحفرة أيضاً . وخرج الغفير بعد لحظات حاملاً عدداً من التماثيل الجرانيتية الصغيرة ،

على حين أمسك الكلب بين أسنانه بآنية فخارية ذات نقوش بديعة ، ووضع الاثنان ما يحملانه خارج الحفرة ثم اختفيا داخلها مرة أخرى .

وتبادلنا النظرات غير مصدقين .. لم يكن بداخل السرداب كنز بل آثار فرعونية قديمة عثر عليها الغفير « شنبو » ويريد تهريبها وسرقتها .

وقلت ذاهلاً : إذن الغفير « شنبو » لص آثار .. إنه يستخرجها من قبورها ويبيعها أو يهربها ولا يسلمها للمسئولين من رجال الآثار والشرطة .

قال « جمعة » : إن هذا يفسر من أين يأتى بالمال الذى ينفقه فى شراء اللحم لكلبه .. وهذا يفسر موقف الكلب منه ومساعدته له !

وقلت مؤكداً : لا شك أنه اشترى حذاءه ذا الرقبة الطويلة من حصيلة سرقاته .

قال « سالم » :

– وهو يفسر أيضاً تركه لعمله الأصلى ومجيئه هنا .. إنه لص آثار .

وأكملت أنا بغيظ : وهذا الكلب اللص « شيبوب » .. إنهما متآمران ولصان وليس غريباً أن يصاحب الكلب « شيبوب » الغفير « شنبو » ما داما على أخلاق واحدة من اللصوصية !

قال « جمعة » : معك حق .. إن ملامح هذا الكلب كانت تدل على أنه مجرم محترف .. تماماً مثل الغفير « شنبو » .

– وما العمل ؟

تساءل « سالم » بقلق .

قلت بحماس : فلنسرع إلى قريتنا ونخبر العمدة بما شاهدناه ونأتى به إلى هنا .

اعترض « سالم » : ولكن قد لا نستطيع الوصول فى الوقت المناسب فيهرب الغفير وكلبه بتلك الأشياء .

وقال « جمعة » بقلق : وقد لا يصدقنا جدى العمدة وربما ينتهى الأمر بعقاب آخر .

كانا على حق فى اعتراضهما ، وكان الوقت يمر ولا بد من تصرف ، فسألتهما بحيرة : وما العمل الآن ؟

مرت لحظات من القلق والتوتر ونحن مختفون خلف بعض القبور ، وشاهدنا الغفير « شنبو » يخرج من الحفرة ثانية حاملاً تمثالاً من خشب « الأرو » الثقيل المنقوش ، وكلبه قد حمل بين أسنانه عدداً من العقود الخرزية الملونة . ووضع الاثنان ما يحملانه بجوار ما أخرجاه من قبل ، ثم اختفيا مرة أخرى .

ولمعت الفكرة فى رأسى فهتفت بانتصار : إن الحل فى أيدينا ، نغلق عليهما فتحة السرداب فهذه السراديب تغلق بأبواب حديدية فى العادة .

التفت « جمعة » و « سالم » نحوى بقلق ، ولمعت عينا « سالم » ثم هتف : فكرة ممتازة .

أما « جمعة » فقد احمرت أذناه مرة أخرى ، بل وبدأتا ترتعشان فى دلالة واضحة على أنه يعانى من اضطراب خفى .. إذ أنه لم يكن معروفاً عنه الشجاعة فى أى صورة من صورها !!

قال « جمعة » وأذناه تزدادان رعشة : ولكن .. ربما .. لعل الغفير وكلبه يمسكان بنا .

قاطعته : كيف سيمسكان بنا وهما بداخل السرداب .. هيا فهذه هى اللحظة المناسبة .

واندفعت للأمام فتبعنى « سالم » على الفور ، ومن الخلف كان « جمعة » يحاول اللحاق بنا ، وكأن فى قدميه أثقالاً من أكياس الرمل .

اندفعنا ثلاثتنا نحو باب السرداب الحديدى نبغى إغلاقه ، ولكن أيدينا لم تمسك بباب السرداب بل بشىء آخر ، فماذا تظنون ذلك الشىء الذى أمسكنا به ؟

إنها رأس الغفير « شنبو » وأذنى كلبه « شيبوب » !!

كان الأمر مثلما تكسب علبة ملبن فى لعبة النيشان ، وعندما تمد يدك لتفتحها تخرج منها حيات وعقارب صغيرة بدلاً من الملبن !

توقفت أيدينا للحظة مشلولة ، وتحجرت عيوننا مرعوبة ، وحتى الغفير « شنبو » حملق فينا ذاهلاً وكذلك فعل كلبه الأجرب ، وبدا من الواضح عليهما أنهما كانا يتوقعان رؤية أى شىء فى العالم ولا يريانا

خرج الغفير شنبو من الحفرة حاملاً تمثالاً من خشب الأرو

نحن بالذات ، ولكن ما الحيلة إذا كنا نحن من يقف أمامهما لا أحد آخر؟

جزَّ الغفير « شنبو » على أسنانه هاتفاً بغضب شديد : أنتم ثانية ؟

ونبح كلبه مؤيداً التساؤل والاستنكار .. وعلى الفور أفقنا من ذهولنا فاندفعنا هاربين لا نلوى على شىء ، فماذا تظنون قد حدث ؟

أسقط الغفير ما كان بيده وامتدت يداه نحونا لتلحقنا قبل الفرار ، ويبدو أنها صارت عادة فلم يجد الغفير اللص غير قميصى ليمسك به !

وقبل أن أفكر فى ترك قميصى له كالسابق أطبق بذراعه حول رقبتى ، على حين قفز كلبه « شيبوب » نابحاً فى غضب مطارداً « جمعة » و « سالم » اللذين اندفعا يصرخان فى ذعر لا مثيل له ، وقفزا هاربين بأسرع مما تستطيع أقدامهما حملهما .

وصرخ الغفير « شنبو » فىَّ : سوف أقتلك أيها الصغير المشاغب . وأخذ يضغط على أنفاسى بأصابعه

التى تشبه أصابع الموز السمينة من الصنف الذى خنق صديقنا « جمعة » بانحشاره فى حلقه عندما كان ملكاً من قبل ، فعرفت أن مصيرى لن يكون أحسن حالاً . وأحسست بأصابع الغفير المجرم تطبق على أنفاسى وتمنع الهواء عن قصبتى الهوائية .. وتقلصت أصابعى فوق التراب خارج الحفرة وأنا أتذكر مصير الحصان المسكين الذى خنقه الغفير « شنبو » بأصابعه ..

وشعرت فى تلك اللحظة بما مر به الحصان المسكين من آلام ومعاناة صامتة ، وعندما قررت الاستسلام تماماً عثرت أصابعى بأحد التماثيل الجرانيتية التى أخرجها الغفير « شنبو » من السرداب ، ولم أنرِ إلا وأنا أخبطه فوق رأسه بالتمثال الجرانيتى فى طريقة إقناع مؤثرة ، ليتفضل بترك قصبتى الهوائية وشأنها حيث إننى لست حصاناً ولا حماراً !

وترنح الغفير « شنبو » وأفلت رقبتى ، ثم تهاوى

ساقطاً داخل السرداب ، فتنفست الصعداء بشدة والتقطت أنفاسى مرة أخرى .

وأسرعت أغلق باب السرداب على الغفير اللص الذى رقد فاقداً الوعى داخله ، على حين كان نباح الكلب « شيبوب » يأتينى من بعيد مختلطاً بصرخات « جمعة » و « سالم » مستنجدين ، وهما يواصلان الفرار من أمامه !

يا لهم من أولاد لطفاء أذكياء

– انظر إليهم هم الثلاثة .. يا لهم من أولاد أذكياء لطفاء .

– أولاد شجعان بحق .. لا يمكن لأحد أن ينكر ذلك أبداً .

– انظروا إلى مظاهر البطولة البادية على وجوههم .. هذه أشياء نادراً ما تجدها فيمن فى عمرهم ..

– إنهم مفخرة لقريتنا وبلدتنا كلها .. أولاد مثاليين بحق.

– لقد صنعوا غفيراً آلياً .. غفيراً آلياً حقيقياً .. ولعلهم يصنعون سفينة فضاء المرة القادمة !

– نعم .. وكان هذا نذيراً بأنهم يوماً ما سيمسكون لص المقابر الفرعونية المجرم .

– من كان يظن أن الغفير « شنبو » هو الذى كانت تبحث عنه شرطة المحافظة كلها لسرقته الآثار الثمينة ، لقد أرشد عن عصابة كبيرة كانت تتعاون معه .

– هؤلاء الأولاد كانوا أذكى من الجميع .. كمنوا للغفير وأمسكوه متلبساً بالسرقة وواجهوه بشجاعة منقطعة النظير .

كنا ثلاثتنا أنا و « جمعة » و « سالم » جالسين فى صدر مكان الاحتفال ، فوق مكان عالٍ ليرانا الجميع .. وقد جلس المئات أمامنا وحولنا يتفوهون بمثل تلك العبارات السابقة ، وهم يرمقوننا بإعجاب لا مزيد عليه ، كأننا هبطنا من المريخ ويروننا لأول مرة ، فى حين أن العبارات السابقة التى كانت تشيعنا من عينة « يا لهم من أولاد خبثاء .. انظر ، إن اللؤم يطل من عيونهم .. إنهم أولاد كسالى فماذا ننتظر منهم ؟؟ » .

الآن يعرف الجميع قيمتنا ويلتقطون الصور لنا ، خاصة وأن المحافظ قرر تكريمنا بنفسه مما دعا العمدة إلى ارتداء حذائه ذى الرقبة الطويلة – فى تلك المناسبة الهامة – وكانت سعادة جدتى لا توصف وهى تقول لأحد الصحفيين عنى بما معناه أننى ولد ذكى جداً ، وأننى لم أضايقها من قبل أبداً ، وكنت دائماً مثالاً للأدب والتهذيب والطاعة ومذاكرة الدروس !

على حين كان العمدة يتباهى « بجمعة » شارحاً كيف أنه منذ ولادته وهو يقوم برعايته ولا يعهد إليه بأى عمل – مثل دش الحبوب مثلاً – ليتفرغ « جمعة » للاستنكار فقط !

أما والدة « سالم » فكانت جالسة مسرورة تنظر إلى ابنها باسمة ، وبجوارها « سلمى » ذات الضفيرة والتى كانت ترمقنا بإعجاب تورد له وجهى ودقَّ له قلبى سريعاً ، مما جعلنى أفكر فى استشارة طبيب لمعرفة سر تلك الأعراض المرضية التى تصيبنى كلما رأيت « سلمى » !

وتبادلنا أنا و « جمعة » نظرة سعادة .. صحيح أن الكلب « شيبوب » عقر « جمعة » وأنه اضطر لأخذ واحد وعشرين حقنة ، ولكن « جمعة » كان معتاداً على مثل هذه التفاهات وكان أكبر من أن تؤثر فيه ، فما دامت الشرطة قد قبضت على « شنبو » وأرسلته إلى السجن هو وعصابته ، فلا شيء يهم بعد ذلك ، وخاصة أن الكلب « شيبوب » بعد القبض على صاحبه فرَّ من القرية ، ويقال إنه لجأ إلى الجبال القريبة ليلوذ بها ولن يجرؤ على العودة إلى قريتنا ثانية وأنه صار من مطاريد الجبل .

كنا فى قمة سعادتنا بملابسنا الجديدة النظيفة التى جاءتنا هدية من قائد الشرطة .. أما المحافظ فأرسل لنا كوراً وأقلاماً وكراريس وحقائب مدرسية كثيرة .. على حين أهدانا العمدة « أستيكة » لكل منا !

صافحنا المحافظ وقائد الشرطة والعمدة والتقطوا الصور معنا ، وأخذ العمدة يتمسح فى المحافظ هاتفاً بين كل لحظة وأخرى : « سيدى المحافظ .. سيدى

المحافظ » .. بدون أن يجد شيئاً آخر يقوله له غير أن يطلب منه التقاط الصور معه ، مؤكداً له استتباب الأمن فى القرية بفضل يقظته ، كأنه هو الذى قبض على الغفير « شنبو » لا نحن !

ولم أتمنَ فى تلك اللحظة غير رؤية الأستاذ « زلطة » ، لا شك أنه الآن يقبع فى منزله مغتاظاً لأن الجميع يحتفون بنا ، وأن أحداً لن يهتم به عندما يقول : هؤلاء الأولاد كسالى بليدون لا يعرفون أين تقع جزر « الكناريا » !

ولكن لدهشتنا الشديدة ، وجدنا الأستاذ « زلطة » يدخل إلى مكان الاحتفال فأصابنا ارتعاد ، ترى ما الذى جاء به تلك اللحظة .. هل يريد أن يخبر المحافظ بأننا حصلنا على أقل الدرجات فى امتحان الجغرافيا والتاريخ ؟

وتقابلت نظراتنا - أنا و « سالم » و « جمعة » - وقررنا أن نسارع بالهرب من المكان فوراً ، إذا ما حاول الأستاذ « زلطة » أن يفضحنا أمام الجميع ،

وأحسسنا فى تلك اللحظة بندم شديد لحصولنا على أقل الدرجات فى امتحان التاريخ والجغرافيا ، فقط لو كنا حصلنا على درجات جيدة لاكتملت فرحتنا وما كان هناك ما نخشاه أبداً .

وقطع حبل أفكارنا تقدم الأستاذ « زلطة » نحونا ، ثم نظر إلينا باسماً ومد يده إلينا مصافحاً لنا ..

تصوروا .. الأستاذ « زلطة » يصافحنا وهو الذى لم تمتد لنا يده من قبل إلا لزغدنا وإيذائنا ؟

مددت يدى ذاهلاً .. وفعل « جمعة » و « سالم » نفس الشىء .. واحتفظ الأستاذ « زلطة » بأيدينا فى يده وهو يرمقنا باسماً ، ثم قال بصوت هامس لنا حتى لا يسمعه أحد آخر : لقد قمتم بعمل ممتاز وشجاع .. وأتمنى أن تجتهدوا فى استذكار دروسكم بنفس قدرتكم على فعل الأشياء الأخرى المدهشة .

تصوروا الأستاذ « زلطة » يهنئنا .. نحن الذين كان يطلق علينا « المشاغبين الثلاثة » و « الكسالى الثلاثة » .. وأمثال تلك التسميات !

واحسست بعرفان الجميل للأستاذ « زلطة » لأنه لم يشأ فضحنا وإخبار الجميع بحصولنا على أقل الدرجات فى امتحاننا الأخير ، ومن المؤكد وقتها استرداد قائد الشرطة لملابسه التى أهداها لنا فى اللحظة التالية مباشرة .

ووجدتنى أقول للأستاذ « زلطة» فى تأثر بالغ : أعدك أن أستذكر دروسى جيداً منذ الآن يا أستاذ « عبد الغفار » !

اتسعت عينا الأستاذ « زلطة » كأنه لا يصدق مناداتى له باسمه الحقيقى ، واحتضننى بشدة ، أنا نفسى كنت مندهشاً كيف تذكرت اسمه الأصلى فجأة ؟

وفعل « جمعة » و « سالم » نفس الشىء ، فوعدا الأستاذ « عبد الغفار » – « زلطة » حتى لا تختلط الأمور عليكم – وعداه بأن يبذلا أقصى مجهود ، لا فى استذكار التاريخ والجغرافيا فقط بل فى كل المواد .

والتقط الأستاذ « زلطة » الصور معنا ، وسادنا جو من الألفة والصداقة مع الأستاذ « عبد الغفار » لم نكن

نتخيل أن يسود بيننا من قبل .

وأخيراً أوشك الحفل أن ينقضى ، وتنهدت .. فى الحقيقة تنهدنا ثلاثتنا ، إذ مرَّ كل شىء كحلم جميل سريع بعد كل المعاناة السابقة .. وكان علينا فى اللحظة التالية أن نعود إلى بيوتنا وأن نبدأ فى مذاكرة الجغرافيا والتاريخ والعربى والحساب والعلوم ، ونستعد للامتحانات التحريرية والشفوية على حد سواء !

وقال « جمعة » مهوناً : سوف تأتى الأجازة يوماً ما ووقتها نستطيع أن ننطلق ونفعل ما نشاء .

فهززنا رؤوسنا بصمت .

ولاحظت جدتى تأثرنا الشديد فسالت دمعة من عينيها ، وأخرجت منديلها الحريرى الجديد المطرز وأخذت تمسح به دموعها وهى تقول : يا لهم من أولاد لطفاء .. إنهم يذكروننى بطفولتى ، لقد كنت شديدة الذكاء وكدت أدخل كلية الطب لولا أن تقاليد الأسرة لم تسمح لى بذلك .

وقال العمدة بنفس التأثر وهو يمسح دموعه بكم جلبابه الواسع : إنهم يذكروننى أيضاً بيوم كنت غفيراً .. لقد كنت شجاعاً مثلهم وقبضت ذات يوم على ثلاثة لصوص مرة واحدة !

تنهدنا نحن الثلاثة ، إذ يبدو أننا أثرنا ذكريات الجميع ، فيا لهؤلاء الكبار ، فإن الجميع يعرفون أن جدتى لم تدخل كلية الطب لأنها رسبت فى امتحان الشهادة الابتدائية ثلاث مرات متتالية مما أوجد لدى والدها – جدى الأكبر – قناعة بأن أفضل مكان لها هو المنزل لا المدرسة . وهكذا لم تدخل جدتى كلية الطب !

أما العمدة فكان معروفاً عنه أنه عندما كان غفيراً شاهد ثلاثة لصوص يتسللون إلى منزله – منزله هو شخصياً – فاختبأ أسفل فراشه خوفاً إلى أن حمل اللصوص كل ما استطاعوا حمله .. حتى زكيبة الحمار حملوها معهم .. ومضوا بسلام دون أن يعترضهم أحد .. وشاء سوء حظهم – أو حُسن حظ العمدة – أن

كان حمار العمدة عائداً من الغيط وحده ، فشاهد اللصوص يحملون زكيبته المملوءة تبناً وشعيراً فلم يعجبه ذلك ، وانطلق خلفهم يرفسهم ويعضهم حتى أسقطهم زاحفين مستنجدين صارخين ، واندفعوا ليحتموا بالعمدة ويطلبوا منه متذللين أن يقبض عليهم وينقذهم من الحمار المتوحش !!

تنهدنا فى صمت وحكمة ، فإن لكل منا سراً يخفيه عن الباقين ، وهذا هو حال عالمنا سواء كنا كباراً أو صغاراً !

وكان لنا سرنا الخاص مثل أغلب الناس فى هذا العالم .. ويتلخص سرنا فى كلمة واحدة : كنزنا .

أوشكنا على مغادرة الحفل عندما لاحظنا - أنا و « سالم » - أن « جمعة » يبدو عليه شعور كبير بالذنب ارتخت له أذناه وتدلتا لأسفل مثل أذنى حمار مريض ، وأنه يريد أن يصارحنا بشىء ، فقال له « سالم » : ماذا هناك يا « جمعة » .. هل تريد إخبارنا بشىء .. سوف نتفهم حتماً ما ستقوله .. إن لم

تخبرنا ونحن أصدقاؤك فمن سيخبرنا ؟

تطلع إلينا « جمعة » فى لحظة صدق نادرة ، ثم قال : إننى .. لقد .. فى الحقيقة .. الواقع أن ..

أخذت أشجعه قائلاً : لا تخشَ شيئاً يا « جمعة » .. تكلم .

استجمع « جمعة » شجاعته ، وكان فيما يبدو يريد التخلص من وزر كبير باعترافه لنا ، وقال : فى الحقيقة فإن قائد الجيوش الفرعونى « حارحور » لم يزرنى مطلقاً من قبل ، لا فى الحلم ولا فى الواقع .. وأنا لا أعرف شخصاً بهذا الاسم أبداً !

- هه ؟ ..

كان هذا هو ما استطعنا النطق به أنا و « سالم » .

واصل « جمعة » : ولم أكن أنا ملكاً من قبل .. ولا كان اسمى « تى تو » الثالث ، ولا حاربت ألف معركة ، ولا مت عندما انحشر أصبع الموز فى حلقى !

– ها ؟..

مرة أخرى أبدينا رد الفعل ذاهلين .

– أما حكاية الكنز فقد كانت كلها من اختراعى .. هذه هى الحقيقة .. لا كنز هناك .. وفكرت فى أننا إذا حفرنا للبحث عن كنز فى أى مكان بنية مخلصة فربما نعثر عليه بالفعل !

صرخنا فى لحظة واحدة غاضبة أنا و « سالم » .. واندفعنا نحو « جمعة » الذى انطلق هارباً متوقعاً ما سوف نفعله به فيما لو طالته أيدينا .

ولما كانت أقدامنا ليست فى طول أقدامه ، فقد كان من غير المأمول أن نلحق به أبداً ولو طاردناه مائة عام ، وإن كان هذا لم يمنعنا من مواصلة مطاردته فى غضب شديد .

وصرخت فيه : أيها الكاذب .. كيف خدعتنا كل هذا الوقت ؟

وصرخ « سالم » : وبعد كل ما حدث تأتى لتقول لنا إنها قصة مختلقة منك !

– وجعلتنا نطارد الغفير « شنبو » والكلب « شيبوب » ونحن نظنهما يريدان الاستيلاء على كنزنا ؟

– وجعلتنى أفقد قميصى الجديد ليستولى عليه كلب أجرب !

– والطائرة الخاصة التى كنت أنوى أن أشتريها بنصيبى من الكنز من أين سأشتريها إن لم يكن هناك كنز ؟

– وسفينتى ببحارتها الألف ؟

– أنت أسوأ صديق عرفته فى حياتى !

– وتستحق أن تطحن الذرة طوال حياتك بلا مقابل لجدك العمدة !

– سأعض أذنيك لو أمسكت بك فأقضمهما كما لو كانتا خيارة فلا تعود طويل الأذنين بعد الآن !

– وأنا سأصفعك على قفاك هذا الذى تهرشه باستمرار !

ومن الخلف وقف الجميع يراقبوننا ذاهلين بدون أن يفهموا شيئاً مما نفعله !

وتساءل أحد الحاضرين : ماذا حدث ، لماذا انطلق هؤلاء الأولاد فجأة مهرولين خلف بعضهم البعض ؟

وأجابه شخص آخر كان يبدو أكثر ذكاء : لعلهم انطلقوا لمطاردة لص آخر .. لا تقلقوا عليهم .. إن هؤلاء الأولاد يعرفون ما يفعلونه تماماً وهم أكثر ذكاء من أى شخص آخر !!